

نتناول في هذا المبحث إشارة الى تعاريفات ومفاهيم خاصة بالشعر الشعبي ، وتدرج هذه التعريفات كمحاولة لتبسيط أسس ومعالَم تكونه.

المطلب الأول: مفهوم الشعبي:

في البداية يجب تعريف العناصر التي لها علاقة بمصطلح الشعر ومنها مفهوم كلمة "الشعبي" التي تعني "الشعب" باعتباره مجموعة من الأفراد الملتفين حول هدف واحد، يعيشون على إقليم متعدد و منفرد، تجمعهم خصائص مشتركة يحتوي على مشروع مثل العمارة والبطن والفخذ و العضة، و القبيلة و النزلة والعشيرة .

إن مصطلح "الشعر" هو ملفوظ يرتبط بالتذوق والأحاسيس واللغة واللسان و المعرفة و الثقافة و لا يشترط توفر هذه الأنواع دفعة واحدة بنسب متساوية بل قد تكون متباينة من حين لآخر ، ومهما اختلفت التعاريف ، فإنها تتوحد في نقل الإشارة الى شيء واحد هو ان الشعر يترجم ما هو داخلي من تصورات وأفكار إلى الآخرين باستعمال مفردات اللغة ،وتلك التصورات أو بالأحرى نسميها أغراضا.

تظهر بين الشعر النظامي والشعبي عناصر كثيرة ترتبط ب"الأصل و الفصل و المتاهات اللسانية و اللغوية" و هي مكونات واحدة قد تفترق من حيث الشكل وتتوحد من حيث الموضوع نطرح ذلك بالصيغة التالية :

أولاً: مفهوم العامة :

يقصد ب "العامة" شيوع المواطنة، بصفة جماعية تتوحد كشخص واحد ،تذوب بين أوصاله كل المشاغل و المشاكل الاجتماعية فهي تعني للجماعة الملتحمة في مكان واحد يتفقون فيما بينهم على تحقيق مصلحة جامعة نسميها بالعامة ،مثلهم مثل الفلاحين الذين تكلم عنهم الإخوة جريم في دراسة الأسطورة .

ويعتبر مصطلح "العمومية" من بين العناصر المهمة في دراسة الظاهرة الشعرية ، ذلك أنه يعد مصطلحا في جوهره سياسيا واجتماعيا خصوصا و أن له علاقة بما يمارسه الأفراد و هو نفسه التعريف المطبق على التراث، فلا يمكن أن نتحدث عن التراث الشعبي دون المرور بمصطلح العمومية فالتراث هو روح العمومية و لا يمكن فصله عنها أو عن المورثين الاجتماعي والثقافي .

ثانيا : مفهوم الفلكلور :

يقابل كلمة الفلكلور في الثقافة الشعبية مصطلح " الشعب أو الجماعة الصغيرة"المرتبطة بتحقيق مصالح معينة على حد ما وصفه روسو بالجماعة البشرية الأولى فهذه الجماعة هي روح ( العمومية )<sup>1</sup>، إننا نتكلم عن العمومية باعتبارها الشكل الدال الذي يحتوي على مدلول الشعب و يكون "الشعر" بينهما هو لغة الإعلام والإخبار و الاتصال .

إن تلك المفاهيم تصب في خانة الشعب و لا يكون هذا الشعب حيا إلا إذا أنتج أساليب تفكير تتلائم مع أقرانه ، و هو ما يسمى بالتراث الشعبي الذي أوردت بشأنه الدكتورة نبيلة إبراهيم<sup>1</sup>تعريفها مقبولا ينطلق من الطبقة حاملة التراث إلى الطبقات الأخرى ،ويعتمد شكلا حضاريا جديدا ثم يعود هذا القديم الجديد مرة أخرى إلى الطبقة حاملة التراث كيفية وفقا لمتطلباتها ،دون أن يظهر تشهيرا بالفردانية ، وحتى نوضح فإن مصطلح العمومية هو نفسه مصطلح الجماعة باعتبارها وحدة تبني إنتاج الفرد الذي يستطيع ببراعته و عبقريته أن

يقنعها فتقبله و تعجب به و ترتضيه و تداوله و تناوله و تحافظ عليه .

إن كلمة فلكلور هي مزيج بين وحدتين (فولك) بمعنى الناس وهي ترجمة للكلمة الانجليزية 2 folks ترمز إلى المعرفة و الحكمة ، و هذا يكون الفلكلور حكمة الشعب ، كما تعني العلم الذي يدرس التراث الروحي للشعب و خاصة التراث الشفاهي و عرفه " سبينوزا" على أنه ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية الذي يجمع ويصنف و يدرس بطريقة علمية تفسير حياة الشعوب و ثقافاتنا عبرالعصور،وبالنظر إلى التعاريف المقدمة لا يمكن أن نتصور الفلكلور في شكل مادة مجموعة بل هو علم يدرس المادة الشفاهية و هذا يكون الأدب الشعبي إحدى الرواتب الحسنة لدراسة الفلكلور الشعبي و يوافق أصحاب اتجاه الأدب الشعبي بان الفلكلور هو الإبداع الشعري لجماهير الشعب العريضة و قد ترجم الفلكلور إلى اللغة العربية فصار يعني التراث الشعبي للتعبير على كل إبداع شعبي بما فيه الشعر الشعبي.

المطلب الثاني: مفهوم و تطور الشعر الشعبي

بعدما تعرفنا على مختلف العناصر التي تدخل في تكوين ظاهرة الشعر الشعبي سوف نوضح مفهوم الشعر الشعبي وتطوره لكي نزيل نقاط الاختلاف .

1-مفهوم الشعر الشعبي :

يعتبر الشعر الشعبي مجموعة من كلمات مرتبطة ببيئة الشاعر العامة يستخدم فيها الأساطير والمغازي والواقع المعاش بلهجة محلية يطرح فيها قضايا في إطار إقليمي عشائري او ديني و ليس معناه عندما نذكر استشهاد الشعراء بالكرامات، بأننا نصيغ صفة الشعر الديني على الشعبي بل يعتبر الشعر الديني غرضا من اغراض الشعر الشعبي يستهدف نشر الفضيلة و مكارم الأخلاق .

يقصد بالشعر الشعبي تلك التعبيرات المنظومة التي تؤدي بالكلمات أو الإبداعات الشفوية بلغة العامية أو الدارجة والتي كثير ما لا يستعمل فيها حروفا في بعض الأحيان غير معجمه، كالتي ورد ذكرها في لسان العرب لابن المنظور، ومن بين العناصر التي تستعمل لتحديد مفهوم للشعر الشعبي .

-العروبية :

ظهرت العروبية (ARABICITE) كنتيجة عن الاختلاط بالوسط الحضري ويذكر "رجيس بلا سير" أن الوليد بن يزيد أثناء حكمه كان ينتقل بين القصور ولم يمل إلى حياة الصحراء ، إلا تقدير وإجلالا للعروبية التي كانت بمثابة الأصل ولما غير بنو امية نظام الحكم غيروا اتجاه العروبية حيث سكنوا القصور، و أتبعوا لهو المدن وغيروا أسماء القبائل كالقحطانيين والعدنانيين عرفوا لاحقا باليمنيين و أيضا بالقيسيين خاصة المشككين العرب النازلين من وراء النهر فمثل ذلك الاختلاط وحد نطقهم من أجل التفاهم.

ب- السحر والشعوذة:

ارتبط استعمال السحرمند القدم بتلك الطقوس و العادات البالية التي سجلت على ألواح البردي وعلى الصخور الحجرية و نقلتها الذاكرة من جيل إلى جيل نتيجة لنهاذ الشعر إلى عقول الناس ، فعندما كان الإنسان يقف أمام المنطق والظواهر عاجزا عن تفسيرها ، يلجأ إلى التأويل والتخمين و كأنه يحيي الظاهرة في حد ذاتها .

لجأ القدامى إلى إرجاع الظاهرة الشعرية إلى قوة خارجة عن نطاق الإنسان عرفت بقوة "الجن و الشياطين

"وعبروا عن ذلك بوادي عبقر1 الذي نسب إلى عبقر وأصبح كل من أشتهر في مجال ما عن غيره عبقريا .

ظل الشعر مرتبط بالشياطين وعالم الجن زهاء قرون عديدة و لم يكن ذلك اعتقاد العربي بل أعتقد الإغريق هم الآخرون قبلهم بأن هناك آلهة تتحكم في الشعراء و قد وصفهم أفلاطون " يلهمون إلى قول ما تدفعهم ربات الشعر إلى قوله " غير أن الحقيقة عكس ذلك عندما تبين أن الشعر هو إبداع نفسي كما عبر ذلك ميخائيل نعيمة الشعر رافق الإنسان من أول نشأته و تدرج معه في مهد حياته حتى ساعته الحاضرة من الهمجية إلى البربرية إلى الحضارة إلى مدينة اليوم رافقها و يرافقها في الترحل في البطالة و البؤس و الرخاء والحرب "

عندما ننظر إلى وجهة نظر ميخائيل نعيمة بخصوص مرافقة الشعر للحضارة، فإننا نرى أن الشعر ظل بوقا ولسانا و صحفيا ممتازا، نقل آثار الأقوام البائدة و حضاراتهم المتفردة بأمانة، بل حتى الذاكرة الشعبية كان لها رصيذا معتبرا في رسالة الشاعر .

### ج- الشخصية الشعرية:

يرمز إلى الشخصية الشعرية على إنها تحصيل المعرفة و لا يقصد بها تجميع الشهادات و إنما الوسائل التي قال عنها سوركين 1 بأنها جميع الأعمال القائمة حسيًا وجميع الأشياء المادية والأساليب والقوى الفيزيائية و الكيميائية والبيولوجية التي يلجا إليها في عمليات الإظهار وهي في حالة حركة داخلية تختلف من فرد إلى آخر، فقد تصادف شاعرا لم يدخل المدرسة وحصل شعره على شهرة فاقت الحدود كحالة أعمار حمر العين المقني، وبالتالي فإن تجميع العناصر الثلاثة " العروبية ، السحر و الشعوذة و شخصية الشاعر " يقودنا إلى تبني مفهوم المدرسة الرومانتيكية للشعر بأنه ليس فرعا من فروع المعرفة، بل المادة التي تكونت بها حياتنا ويستشهد عبد الرحمن شكري بتعريف مرآتي للشعر قال فيه :

و إنما الشعر مرآة لغائبه هي الحياة فمن سوء و إحسان

و إنما الشعر تصوير وتذكرة و متعة و خيال غير خـوان

و إنما الشعر إحساس لما حققـت له القلوب كأقدار و حدثان

و من كل معنى يروع الفهم طائلة معنى من ألحان في لفظ من ألحان

إن صورة الشعر الشعبي تكون أكثر ميلا لوصف الحقيقة لأنها تحدث التقارب من الواقع بلغة مفهومة ومبسطة للتمعن، إذ لا يظهر في كامل تفاصيلها إلا إيجابيات الإتقان في إيصال المعنى تركز في بعض الأحيان على الموهبة التي هي ليست نتيجة من نتائج التعليم أو الثقافة الشعرية و طاقة مخفية في الذات لأنه يوجد الكثير من يحملون معارف شعرية ولكنهم يجهلون قول الشعر، ويذكر أبي مدين الشافعي تعريف أن الشعراء لهم نفوس لا تشبه بقية النفوس ، فإنهم يجدون في الشعر قوة خفية تجعلهم يعبرون عما يجيش في خواطرهم و يعبرون عنه بكيفية "عجيبة ومؤثرة " وهو نفس التعريف الذي قدمه المرحوم محمد مصايف حين قال أن الشعر فن و أنه لذلك أثر من آثار العبقرية الإنسانية. فهو على خطاه الجميلة يعتبر حكمة على حد قول الرسول صلعم. .

### 2-تطور الشعر الشعبي .

إن الحديث عن تطور الشعر الشعبي، يجرنا للحديث على تناول وصف للمحيط العام للجزائر من علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية، أثرت فيه على جميع المستويات .

لا يمكن فصل التطور التاريخي للشعر الشعبي عن عقلية الشاعر الشعبي الذي كان سفيرا و صحفيا بمعنى الكلمة

نقل فساد المجتمع وانتشار الآفات كما جاء به الشاعر بن عبد السلام الفعال :

حق المسكين ضاع بين الخطافا والشهود ازور واقفة تحكي صلبات  
القاضي شوفته يخوف مخطوفة ما يحمي القليل يبكي الأجفـان

وليست هي المرة الوحيدة التي نعثر فيها على هذا الدور الإعلامي للشاعر فقد تحدثوا عن كل مظاهر الحياة التي كانت تقلق المواطن الجزائري والفرنسي فما هي الشاعرة فاطمة الشريف تصف مفارق الرحيل.

وين فرحنا واين اشنان-ه وين زهونا وين أعراسي

كاسبين هذه مزغنـة والروح يلهب بقاضي

يامحايبي كي كنت ان-ا يامطارحي والناموسي

ياقطايبي في البردانة يامكاحلي وكوابس-ي

وعلى كل فإن الشاعر الشعبي رغم كل المحن التي مر بها الوطن منذ الزمن القديم إلا وكان يسجل فيها الأناشيد.

ومع مطلع القرن الرابع عشر، عرفت الجزائر تطورا كثيرا في الجانب الثقافي من حيث إنشاء المدارس القرآنية و دور تعليم الدين و الشريعة و الأوراد الدينية ، فكانت مظاهر الحياة السياسية و الإجتماعية قد فرضت نفسها بقوة على مراكز السيطرة في البلاد المغربية قاطبة، حيث كانت المساجد مبعثرة على الغلابة ( المسجد العتيق ) و( الجامع الكبير ) . الأزهر و الزيتونة و القرويين فقد كانت كل القرى تحتوي على مساجد محصنة و دور تعليم القرآن و الكتابيب .

في الجزائر كان الجامع الكبير يدين بالمذهب المالكي و الجامع السفير بالمذهب الحنيفي و هذا الإنشار المذهبي عظم التنافس الديني بين العلماء في الجزائر ، فلا نجد عاملا غير موع بقرأة القرآن أو كتابة الشعر بسبب الإنتماء أو النعرة الدينية المنقادة لمناصرة بين الشيوخ في الجوامع كجامع سيدي رمضان بالقصبة و جامع اليانا بطرابلس أو بالزوايا و لما نقلت العاصمة إلى وهران قامت ثورة الطريقة الدرفاوية حين ذاك أوزع الشعراء مواهبهم لصقل أبيات في الشعر الملحمي و لا شك أن ذلك الشعر كان واصفا حقيقيا لحماس الجزائريين بغربة الديار نفسه نفس مثقف الشعر الديني الذي قدم القصيدة الشعبية وفي إعتقادنا أنه وضع أسس الأوراد و التغني بالبردى .فكان الشيخ المتفرس في علوم الدين له باع في الأدب و الصرف و نأخذ المعية من أبي مهدي على الثقافي ( 1669م) الذي درس الأدب و كأن بأني فيه بالعجائب و الغرائب ، و لم يقل دركه شأننا من شأن الشيخ أبو زكريا يحي الشاوي الذي كان يجيب سألية بكواكب ذرية من الشعر المقفى (2) .

في هذه الفترات التي ذكرناها على لسان المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي لم نسمع عن ديبب القصيدة من اللون الشعبي إلا لاحقا ،لكن في الأغلب أن عناصر بحور القصيدة الشعبية جاءت مكملة لمساهرات الشعر الديني التي كان العلماء يتنافسون فيها ثم إنتقل إلى الطرقية من الخانقات و الزوايا ، فلم كان يتوفى شيخ أو المرابط يلقي ذلك النعي في نفوس المحبيين منسوجات سعربية كثيرا ما كانت تدلف من ودق الشعر ذكر الشيخ الورتلاني في قصة سبعة رجال التي شكلت محور لأغنية جزائرية في القرن الثامن عشر 1. و قد لا حظنا أن الكثير من العلماء و الشيوخ برعوا في قول الشعر الحقيقي و المنظوم الموسيقى منذ العهد التركي إلى نهاية القرن السادس عشر. و إذا تأملنا أسباب ولادة الشعر الشعبي فإننا لا نخرج عن أسباب الضعف و القهر الذي تعرضت له الجزائر عبر القرون من طرف المستغلين سواء من البرتغاليين أو الإسبانيين أو الأتراك و الفرنسيين أن هذا القهر كان سببا في لم شمل الفارين من الأندلس الجريحة حيث الثقى الجزائريين بـ

المسلمين الفاربيين من الأندلس ،لهذا جاء شعر الشوق و الغربة معبرا كما اشرفنا في البداية من أروع ما قيل في اللون الزجلي، الذي عبر به الفارين عن أشواقهم ،و هذا يقودنا إلى تبرير معلومة تاريخية ذكرها عبد الحميد حاجيات في تقديمه لقصائد إلى مدارس تنصيب أن الأزجال إحتلا مغربيا لكن ذلك لم تبقى بأثرهم المسيطرة الأندلسي و هو ما ساعد لاحقا المغاربة في عصر المرابطين و الموحدين على النفي بالأزجال في أنماطها الأندلسية ، وهو ما عبر الأعراب في تقبلهم العامية أنواقهم من وجهة نظرهم و هذا يعني أنهم لم يقلدوا كما ذهب بعض النقاد بل إلى تناول الذوق بناء على الموسيقى الشعرية الزجلية و قد تطور لاحقا في العهد التركي من أجل تنظيمه لغويا و هذا كان سبقا مقبولا من الناحية العلمية ، خصوصا إذا ما أدركنا قرآته علماء و شيوخ الطرف في ميادين النمو بعد شيوخ العجرومية ، و مفاتن البردي و لؤلؤة سيبيويه . أما أغراض الشعر الشعبي ( القصيدة الزجلية في الطور الأول ) قد تناولت الموروث الشعبي المتنقل عبر الأجيال بواسطة الزاوية و التلحين خصوصا و أن العرب كانوا حديث عهد بالأم الشوق و الحب و الهجر .

و يذكر لنا الأسباب عبد الحميد حاجيات فكرة في غاية الأهمية مفادها إشادة حرية التعرف في المادة الشعرية لعدم وجود نصوص مكتوبة و هذا ربما ساعد على تموين الكثير من القصائد الشعبية والتي عثر على أصحابها و شابها أخطاء لغوية و أمام هذا الزخم و لشيوع الأخطاء اللغوية أخرج المتزمتون أحكاما ثقيلة على أن القصيدة الشعبية هي سهم موغل في اللغة العربية و كان من بداية الأمر تهجما على موروث ثقافي في طابعه الشكلي قبل أن يتطور اللسانيات و ندرس الأنظمة الموسيقية الآخاذا في الشعر الشعبي و هي ظاهرة عرفت منذ القدم ... ( قد أشرنا في كتابنا المفصل ) ( 1 ) حول الصحافة و التصحيف ما وصل إلينا من شعر شعبي قديما مصحفا أو منسوبا لغير أصحابه ، فأنا لا نملك آلية التصنيفية إلا بعد إستعمال تأسيس مرصد وطني للجمع الشعر الشعبي فقط دون إجماعها بالفنون الأخرى و قد يساعد هذا المرصد على فك طلا سم كثيرة ظلت لصيقة بالقصيدة الشعبية و نزيل عنها الجهالة كما يدعى المتركزين لغويا على مناغم النحو و الأعراب و الشكل و الأدغام .

يربط الكثير من الباحثين مصطلح الشعر الشعبي بالملحون ، للهروب من قواعد اللغة كما فضل ذلك الدكتور التلي بن الشيخ ويذهب محمد المرزوقي إلى ابعده من ذلك بالفصل الواضح بينها لقوله ، أما الشعر الملحون فهو أعم من الشعر الشعبي إذ اشتمل كل منظوم بالعامية سواء كان مجهول المؤلف أو معروف وسواء روي في الكتب أو مشافهة سواء داخل في حياة الشعب فأصبح ملكا للشعب أو كان من شعر الخواص .

ونحن نذهب مع الدكتورين التلي بن الشيخ و محمد المرزوقي بأنه ليس هناك فصل بين الشعر الشعبي و الملحون وهو عكس الغناء كما استبعده محمد العاسي، حيث قال أن التسمية مشتقة من اللحن بالمغنى لأن الفرق بينه وبين الفصح يظهر في أن الملحون ينظم قبل كل شيء لكي يبقى كما ذهب نفر آخر من الباحثين ومن بينهم الجراري بأن المغاربة أطلقوا تسمية كلمة الملحون على الشعر المغربي واقتصر أثر الأعراب فلم يجد بين الشعر الأندلسي والمغربي ، وكان الدكتور التلي بن الشيخ محقا عندما قال أن الشعر الشعبي في المغرب العربي لا يزال في حاجة إلى دراسة شاملة .

كما لاحظنا سجل اختلاف كبير في التأريخ لبداية الشعر الشعبي في الجزائر فمن الباحثين من يربط بروز الشعر الشعبي بالجزل التلمساني و الحوزي ، ومنهم من يقدره ببداية الملحون المغربي رغم ما هو موجود من مصادر تاريخية تذكر ان بداية الأدب المغربي "الشعبي" في طبعه الفاسي و المكناسي هي التي كانت قد ارتبكت بالملحون

يعود الحديث عن الملحون إلى ما ذكره ابن سعيد المصري المتوفي سنة 1249 م حول الزجل الأندلسي و أتخذ هذا التاريخ عند الكثير من الباحثين توقيتا رسميا لظهور ظاهرة الملحون كما ذكر ذلك ابن خلدون في المقدمة في فصل الزجل .

بينما ربط ابن سعيد المغربي بداية الشعر الشعبي إلى ماأورده الشاعر المغربي عبد العزيز المغرواي في مدح ا  
لأمير المنصور الدهابي سنة 1605 عد من قبيل الملحون المكني بالموشح أوالزجل ، وهذا عند المغاربة.

أما ما ذكره احمد طاهر في دراسته فإن بداية الشعر الشعبي بالجزائر تعود إلى الشاعر سيدي لخضر بن خلوف  
وليد سيدي لخضر بناحية مستغانم سنة 1555م عندما وصف معركة إسبانيا الجزائر في مزعران سنة 1558

م 1

و على الرغم مما اشار له لخضر بن خلوف في وصف معركة "مزعران" فهو وصف جمع بين حيثياته أشكال  
من الملحون و الزجل بينما ذهب بن سعيد المغربي بالتأكيد على إن الملحون و الزجل مفهوميين مختلفين ،و  
قدم محمد المرزوقي تأكيدا ثانيا على بداية الشعر الشعبي إلى العهد الحفصي سنة 676 هـ. في صورته  
الزجلية التي ذكرها الدكتور" التلي بن الشيخ " عندما اعتقد أن فن الزجل كان له تأثير على الشاعر الشعبي و  
هذا إقرار وجيه يبعد الزجل عن مفهوم الملحون .

و بالنظر إلى كل ما قيل ،فإن هوية الشعر الشعبي في صورته الحالية تكون قد مرت بالقصيدة الزجلية و هذا  
له ارتباط بتأثير المهاجر الأندلسي و الفارسي إلى المغرب العربي .ومما قيل ان سكان المغرب العربي كانوا لا  
يتذوقون الشعر الشعبي قبل الزحفة الهلالية او الفرار الأندلسي فان هذا التاريخ فيه إجحاف في حق القرنين  
الثالث والرابع الهجريين الذين شهدا ولادة الصوفية الحقيقية بأورادها ، التي تغنى بها المريدون في الزوايا ،  
فكيف يكون الشعر الشعبي في قلبه الموسيقى وليد القرن الخامس الهجري مع العلم إن النظم الشعري  
الملحن قد سبق ظهور القصيدة الزجلية عن طريق الورد الديني.